

حِينَ بَكَى الطُّفْلُ وَأَرَادَ أَنْ تَقْطِفَ لَهُ أُمُّهُ الْقَمَرَ... أَتَتْ بِدَلْوِ الْمَاءِ وَصَوَّبَتْهُ إِلَى السَّمَاءِ، مَدَّ الطُّفْلُ يَدَهُ إِلَى الْمَاءِ فَأَنْكَسَرَ الْقَمَرُ... ضَحِكَ الطُّفْلُ ثُمَّ نَامَ.

صَحِيحٌ أَنَّ الْوَلَدَ ضَحِكَ ثُمَّ نَامَ. أَمَا أَنَا فَيَقِثُ سَاهِرًا، أَلْمَلِمُ تَنَائِرَ الْقَمَرِ عَلَى وَجْهِ ذَاكِرَةِ تَمُوجِ كَالْمَاءِ أَهَارِبٍ مِنَ الْوَلَدِ، لِيُعْطِيَ مَسَاحَاتٍ شَاسِعَةً مِنَ الزَّمَنِ، يُصْبِحُ مَاءُ الدَّلْوِ جَدْوَلًا، نَهْرًا، بَحْرًا، ضَحِيحًا، غِنَاءً، رُقْصًا، سُكْرًا، عُرْسًا، وَجَعًا، نَارًا، تَصْهَرُ كُلُّ مَا قَسَا فِيَّ وَتَحَجَّرَ، وَتُعِيدُهُ نَفِيًّا مِثْلَ قُرْبَانَةٍ أُولَى أَوْ قُبْلَةٍ أُولَى.

أَصْدِقَائِي، عَلَنِي أَجْدُ مَعَكُمْ الْيَوْمَ مَقْعَدًا لِلْحَنِينِ، عَلَى وَقَعِ تَكْرِيمِ الْجَامِعَةِ الْأَمِيرِيكِيَّةِ فِي بَيْرُوتِ.  
هَلْ مَا زِلْنَا قَادِرِينَ عَلَى الْحَنِينِ وَرُؤْيَةِ الْمُسْتَقْبَلِ الْعَامِضِ.

أَحِبُّهُ دَائِمًا غَامِضًا، وَأَعُودُ إِلَيْكُمْ.

أَعُودُ إِلَى ذَاتِي، إِلَى مَدِينَتِي، لِأُرَكِّبَ مَا تَفَكَّكَ فِي النَّفْسِ وَالزَّمَنِ، رَعْبَةً فِي التَّعْبِيرِ عَنِ فَرَحِ غَامِضٍ، عَنِ سَعَادَةٍ مَا وَسَطَ هَذَا الظَّلَامِ الدَّامِسِ، عَلْنَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُعَيِّرَ هَذَا الْعَالَمَ وَنَسْتَبْدِلَ فَوْضَاهُ بِالْإِيقَاعِ وَالْمُوسِيقَى وَالشَّعْرِ وَالْحُبِّ.

لَقَدْ قَلَبْتُ الْمُدُنَ صَفْحَةً صَفْحَةً، فِي الْمُوسِيقَى أَيْضًا عُرْبَةً.

وَأَعُودُ لِأَلْتَقِيَ بِكُمْ وَلَا عَوَاضَ عَمَّا أَفْتَقِدُهُ هُنَاكَ فِي الْبَعِيدِ.

مَطَرٌ أَوْلَى عَلَى بِيَادِرِ وَخُفُولِ ضَيْعَتِي الْقَرِيبَةِ مِنْ هُنَا، لِأَسْتَرْجِعَ الْعِطْرَ الطَّيِّبَ لِلْمَطْرَةِ الْأُولَى عَلَى الْأَرْضِ الْعَطْشَى، وَلَا تَذَكَّرُ أَجْحَادِي الْأُولَى، يَوْمَ بَنَيْتُ مَمَالِكَ عَلَى ضِفَافِ السَّوَاقِي وَحَمَلْتَهَا الْفُصُولُ إِلَى أَسْفَلِ الْأُودِيَّةِ.

أَحْسَبُ أَنَّ هَذَا التَّكْرِيمَ الَّذِي أَحْظَى بِهِ مِنْكُمْ تَكْرِيمٌ لِلْبَنَانِ الْوَطَنِ، لِلْبَنَانِ الْإِنْسَانِ وَالْحُرِّيَّةِ وَالثَّقَافَةِ وَالْإِبْدَاعِ وَالْجَمَالِ.

أَنَا، فِي النَّهَائِيَّةِ، سَلِيلُ هَذِهِ الثَّرْبَةِ وَالْمَاءِ وَالْهَوَاءِ، وَأَبْنُ هَذِهِ الْمَعَانِي كُلِّهَا، الَّتِي تَشَرَّتْهَا مِنْذُ الطُّفُولَةِ، وَنَهَلْتُ مِنْ يَنَابِيعِهَا وَصَقَلْتُ وَجْدَانِي.

لَقَدْ عَلَّمَنِي وَطَنِي أَنْ أَدَافِعَ عَنْهُ، ضِدَّ الْعُدْوَانِ وَضِدَّ الْفَسَادِ وَالْإِسْتِغْلَالَ وَفَمَعَ الْحُرِّيَّاتِ، وَحَاوَلْتُ أَنْ أُكْرِسَ فَنِّي لَهُدِهِ الْقِيَمِ وَالْأَهْدَافِ.

وَمَ أْبْرَحَ أَسْلُكُ هَذَا السَّبِيلِ حَتَّى أَلْيُومَ، عَلَي الرُّعْمِ مِنْ أَنَّ التَّجْدِيفَ الصَّعْبَ، ضِدَّ تَيَّارِ الْيَأْسِ وَالْفَسَادِ وَالْقَدَارَةِ، بَاتَ ضَرْبًا مِنَ الْمُمْتَنِعِ، أَوْ يَكَادُ فِي هَذَا الزَّمَنِ الْمَحْرُوسِ مِنَ الْأَمَلِ.

أَنَا سَلِيلُ هَذِهِ الْمَعَانِي كُلِّهَا، لِكِنِّي أَلْيُومَ حَزِينٌ أَيُّهَا الْأَصْدِقَاءُ. فَأَنَا أَرَاهَا الْآنَ تَتَهَاوَى تَحْتَ مَعَاوِلِ هَدْمِ جَمَاعِي، يَأْتِيهِ مِنْ تَنَاقُصِ مَنْسُوبِ لُبْنَانَ فِي أَنْفُسِهِمْ، أَوْ مَنْ أَخَذَتْهُمْ مَصَالِحُ الْقَبِيلَةِ وَالْعَشِيرَةِ وَالطَّائِفَةِ وَالْعَائِلَةِ، بَعِيدًا عَنِ الْوَطَنِ.

وَلَيْتَهَا أَخَذَتْهُمْ عَنْهُ فَحَسَبْتُ، كَانَ الْأَمْرُ هَانَ حِينَهَا وَصَعُرَ، لِكِنِّهِمْ، بِكُلِّ مُفْرَدَاتِ الْأَسْفِ، يَأْخُذُونَ الْوَطْنَ مَعَهُمْ إِلَى حَتْفِهِ، كَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ، كَأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْهُ.

كَانُوا دَائِمًا مُخْتَلِفِينَ، حَتَّى عِنْدَمَا يَتَعَرَّضُ الْوَطْنُ لِلْخَطَرِ. وَكَانَ يَسْعُهُمْ أَنْ يَظْلُوهَا عَلَى سَجِيَّتِهِمْ، مُخْتَلِفِينَ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ. لِكِنِّهِمْ لَا يَمْلِكُونَ أَنْ يُعَزِّمُوا شَعْبًا بِأَكْمَلِهِ، بِخِ لَافِيهِمْ، وَلَا أَنْ يَدُقُّوا الْأَسَافِينَ بَيْنَ أَبْنَائِهِ، فَيِمَارِسُونَ الضَّعْفَ عَلَى تَمَاسِكِهِ الْوَطْنِي، نِيَابَةً عَنْ غَيْرِهِمْ، حَتَّى وَإِنْ لَمْ يُدْرِكُوا أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ.

أَنَا غَاضِبٌ أَيُّهَا الْأَصْدِقَاءُ، إِذْ أَرَى وَطَنًا يَتَمَرَّقُ، وَشَعْبًا يَسْتَنْفِرُ بَعْضُهُ ضِدَّ بَعْضٍ، وَسَاسَةً يَتَلَهَوْنَ بِلُغَبَةِ الْإِنْقِسَامِ، وَقِيَمًا نَبِيلَةً تُدَاسُ، وَعَدَابًا إِنْسَانِيًّا يَتَضَاعَفُ، وَشَقَاءً أَجْتِمَاعِيًّا يَلِدُ الْيَأْسَ، وَمَبَادِيئَ ثُبَاعٍ وَتُشْتَرَى، وَالسِّنَةَ تُوجِرُ نَفْسَهَا لِلسُّلْطَةِ وَالْمَالِ، وَثِقَافَةً تَذْوِي، وَفَنًّا تَعْبَثُ بِهِ يَدُ الْقَدَارَةِ، وَهَوَاءً يَتَلَوْتُ، وَأَفُقًا يَنْسَدُ وَيَدْهَمُ.

لَيْسَ هَذَا اللَّبْنَانُ لُبْنَانَنَا، لَيْسَ الْوَطْنُ الَّذِي ضَحَّى مِنْ أَجْلِهِ الشُّهَدَاءُ وَالْيَتَامَى وَالْأَرَامِلُ، وَلَا الثَّقَافَةُ الَّتِي أَنْعَقَدَتْ لَهَا الْإِمَارَةُ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ أَجْمَعِينَ.

إِنَّهُ شَبَّحَ خُفِيًّا، وَكَابُوسٌ مُزَعِّجٌ يَنْخَرُ الذَّاكِرَةَ وَيَمْسَحُ مَا تَبَطَّنَ فِيهَا.

أَنَا غَاضِبٌ أَيُّهَا الْأَصْدِقَاءُ، فَهَلَّا شَارَكْتُمُونِي غُضْبِي، عَسَى صَوْتُ الْإِحْتِجَاجِ يَرْتَفِعُ أَعْلَى فَأَعْلَى.

ثُمَّ إِنِّي أَحْسَبُ هَذَا التَّكْرِيمَ تَكْرِيمًا لِلثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَأَنَا مِنْ مَعِينِ هَذِهِ الثَّقَافَةِ نَهَلْتُ، مِنْهَا وَفِي رَحَائِهَا نَشَأْتُ.

فَأَنَا اللَّبْنَانِيُّ الْعَرَبِيُّ لَسْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخْرَجَ مِنْ أُفْقِي الْعَرَبِيِّ، حَتَّى لَوْ أَرَدْتُ، فَكَيْفَ إِذَا لَمْ أُرِدْ.  
وَأَنَا لَا أُرِيدُ أُيْهَا الْأَصْدِقَاءَ، وَإِلَّا خُنْتُ رِسَالَتِي الْفَنِّيَّةَ، وَبَادَلْتُ الْمَحَبَّةَ وَالْإِحْتِصَانَ بِالصَّدِّ وَالْحَذْلَانِ، وَحَرَمْتُ لُبْنَانِيَّتِي مِنْ أَنْ تَكْتَمِلَ مَدَى وَمَعْنَى بِأُفْقِهَا الْعَرَبِيِّ الرَّحْبِ.  
وَمُنْذُ بَدَأْتُ رِخْلِي الْفَنِّيَّةَ، وَكَانَ ذَلِكَ قَبْلَ ثَلَاثِ قَرْنٍ.

لَمْ أَكُنْ جَاهِزًا لِكَيْ أَصْطَنِعَ الْفَوَاصِلَ وَالْمَسَافَاتِ بَيْنَ لُبْنَانِيَّتِي وَعُرُوبِي، وَكَمَا أَخَذْتُ لُبْنَانِيَّتِي مِنْ تَارِيخِ هَذَا الْبَلَدِ وَمِنْ ثِقَافَتِهِ وَشَعْبِهِ، لَا مِنْ نِظَامٍ أَوْ مُؤَسَّسَةٍ، كَذَلِكَ مَا أَتَيْتَنِي عُرُوبِي مِنْ نِظَامٍ أَوْ مُؤَسَّسَةٍ، وَإِنَّمَا مِنْ تَارِيخِ أُمَّةٍ وَتَرَاثٍ وَإِنْسَانٍ وَحَضَارَةٍ وَثِقَافَةٍ وَلُغَةٍ، نَحْنُ مِنْهَا جَمِيعًا.

لَقَدْ حَمَلْتُ مَعِي التَّزَامِي بِقَضَايَا الْأُمَّةِ، وَقَدَّمْتُ مُسَاهِمَتِي فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْأَلَمِ فِي صِنَاعَةِ مُسْتَقْبَلِ  
إِنْسَانِي مُخْتَلِفٍ، يَلِيقُ بِنَا وَيُتَرْجَمُ طُمُوحَاتِنَا.

أَشْعُرُ الْآنَ، وَأَنَا أَتَابِعُ كَافَّةَ وَقَائِعِ الثُّورَاتِ الشَّعْبِيَّةِ فِي الْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ.

أَشْعُرُ بِالْمَسْئُولِيَّةِ تُطَوِّفِي، لِكَيْ أَبُوحَ بِشُعُورِ الْعُضْبِ بِجَاهِ حَمَامَاتِ الدَّمِ الَّتِي تُغْرِقُ بِهَا أَجْهَرَةُ الْقَمْعِ  
الْعَرَبِيَّةِ مُدُنَنَا وَفُرَانًا وَشَوَارِعَنَا، رَدًّا وَحَشِيًّا عَلَى مَطَالِبِ جَمَاهِيرِ شَبَابِنَا وَكُهُولِنَا وَنِسَائِنَا الْعَادِلَةِ وَالْمَشْرُوعَةِ،  
فِي الْحُرِّيَّةِ وَالِدِّيْمُوقْرَاطِيَّةِ وَالْعَدْلِ الْأَفْضَلِ.

لَا يُمَكِّنُ أَنْ أَكُونَ إِلَّا مَعَ شَعْبِي فِي كُلِّ قُطْرٍ عَرَبِيٍّ.

لَا أَسْتَطِيعُ إِلَّا أَنْ أَكُونَ فِي مُعَسَكَرِ الْحُرِّيَّةِ وَالْمُطَالَبَةِ بِالِدِّيْمُوقْرَاطِيَّةِ وَنَبْدِ الْعُنْفِ.

وَهَا إِنَّ الْحُزْنَ وَالْعُضْبَ يَعْتَصِرَانِ قَلْبِي، وَأَحْسَبُ أَنَّهُمَا يَعْتَصِرَانِ قُلُوبَكُمْ جَمِيعًا، وَنَحْنُ نُعَايِنُ هَذَا  
الْقَدْرَ مِنَ الْعُدْوَانِ الْوَحْشِيِّ عَلَى كِرَامَةِ وَأَدَمِيَّةِ الْفِلَسْطِينِيِّينَ، وَهَا هُوَ الدَّمُ الْمَسْفُوكُ يُوحِّدُنَا فِي هَذَا  
الْأَلَمِ، وَعَسَانَا نَشْعُرُ بِجَمْعِنَا الْعَصِيَّ عَلَى الْإِنْتِقَامِ لِيَدْعُونَا نَعُضِبُ وَنَصْرُحُ، وَنَسْتَنْهَضُ أَلْهَمَّ،

وَنَسْتَصْرِحُ الضَّمَائِرَ الْحَيَّةَ فِي وَجْهِ هَذِهِ الْجَرِيْمَةِ، أَلَا وَهِيَ أَحْتِلَالُ فَلَسْطِينِ وَإِنْشَاءُ الدَّوْلَةِ الصُّهُبِيَّةِ عَلَى أَرْضِ فَلَسْطِينِ.

لَمْ يَبْقَ لَنَا سِوَى الْبُوحِ الْعَمِيقِ، لِنُدَافِعَ عَنَّا أَنْفُسَنَا، لِأَنَّ الْقِيَمَ الْإِنْسَانِيَّةَ الْكُبْرَى لَا تَشِيخُ، فَلَنْ تَكُونَ الْحُرِّيَّةُ وَالْعَدَالَةُ وَالْكَرَامَةُ أَشْيَاءَ بَالِيَةً، كَمَا يُبَشِّرُنَا النِّظَامُ الْعَالَمِيُّ الْجَدِيدُ الْمُوَعِّلُ فِي الْقَدَمِ. وَلَنْ نَرْضَى بِأَنَّ يُحَوَّلَنَا إِلَى جُمُوعٍ خَائِرَةٍ، مُسْتَنْفَذَةٍ، ذَلِيلَةٍ، تَتَمَرَّعُ بِالْيَأْسِ وَتَفَاهَتِ التَّلِيْفِيزِيُونَاتِ الْمَلَوْنَةِ وَالِاسْتِهْلَاكِ الرَّحِيصِ وَالطَّائِفِيَّةِ وَالتَّعَصُّبِ.

إِنَّ حُرِّيَّتَنَا الْأَخِيرَةَ هِيَ فِي أَنْ نَتَمَسَّكَ بِقَنَاعَاتِنَا، بَعْدَ مُصَادَرَةِ كُلِّ شَيْءٍ، بِإِلَّا اسْتِثْنَاءٍ، لِنَصُونَ شُعْلَةَ الْمَبَادِيءِ، وَلِنَأْمَلَ بِصَبَاحِ جَدِيدٍ لِرَبِيعٍ لَا يَيْئَسُ، وَلِنَسْأَلَ بِاسْتِمْرَارٍ عَن حِصَّتِنَا مِنَ الْحُرِّيَّةِ وَالسَّلَامِ. لَا نُرِيدُ جَوَابًا، لِأَنَّنا لَا نُرِيدُ مَزِيدًا مِنَ الْعَذَابِ وَلَا مَزِيدًا مِنَ الْعُرْبَةِ وَلَا مَزِيدًا مِنَ الشُّهْدَاءِ.

مرسيل خليفة